الحلقة الرابعة والعشرون

(1) (منزل الأسير في صيدا.. الأسير يفتح الباب بهدوء لا يريـد أن يوقظ أحدا.. يشاهد محمود يتلصص من خرم الباب حيـث تنام فاطمة في غرفة حسن.. يدخل غرفة نومه دون أن يراه.. يخلع عمامته وسترته وقمبازه ويرتدي منامته ويستلقي قـرب حنيفة يفكر.. الشمس ترسل أشعتها مـن وراء الأفـق الـى سريرالشيخ فيبدو وجهه قلقا مهموما)

الأسير: (لنفسه) لا بد من تزويج محمود!.. تجاوز الثلاين وأخـواه الأصغر سنا مصطفى وحسن كونا أسرتيهما منذ سنوات، وتقدما فـي مهنتيهما، أما هو فلا أسرة تشده ولا عمل يقوم به (تتململ حنيفة فـي فراشها وقد صحتها أشعة الشمس التي داعبت عينيها فترى أبا محمود قربها فتعتذر عن تأخرها في النوم)

حنيفة: لقد سهرت أنا وفاطمة طويلا نعد الطعام وناف ورق العنـب حتى لا ننشغل يوم الجمعة عنك، وما كنت أظن أنك تصل باكرا..

الأسير: أنا أيضا لم أرغب أن يمضي نهاري على الطرقات (تـنهض حنيفة لتهيئ الفطور فيشدها الأسير من يدها)

الأسير: ابق قربي فلي حديث معك..

حنيفة : خير ان شاء الله..(ينهض الأسير الى سترته ويخرج منهـا رسالة محمد ويناولها إياها.. تقرأها فيشرق وجهها بالفرح) أريـد أن أزغرد لهذه الأخبار السارة..

الأسير: لاتزغردي فتوقظي النيام! انني أريد أن تحدثي محمود بشأن الزواج..

حنيفة: هل اخترت له أحدا من بيروت؟ من تكون؟

الأسير: لا، من أريدها أن تكون له زوجة هي فاطمة.. شابة وجميلة ومن عائلة كريمة..

حنيفة: (تنهض منزعجة لهذا الإختيار) لا بالله يا أبو محمـود! لـن أزوج إبني من مطلقة جاهلة.. هل خلت صيدا من البنات الجمـيلات ذوات الحسب والنسب؟

الأسير: أنت اسأليه رأيه، فلعله رآها ووقعت من نفسه!

حنيفة: لا أريد أن أعرف رأيه.. انه قادم من حرب كان فيها علـى وشك الموت وشاهد أمامه رفاقه يتساقطون.. فهو في وضع لا يحسن فيه الإختيار، قد تعجبه أية فتاة يسوقها القدر أمام عينيه..
الأسير: أنا سأسأله بنفسي.. أيقظيه ليفطر معنا..
حنيفة: لن أوافق على اختيارك يا أبو محمود، ولو سـقطت الـسماء على الأرض..
الأسير: أنا الذي سأقيم الدنيا وأقعدها عليه ان لم يوافق على الـزواج من فاطمة! شاهدته صبيحة هذا اليوم يتلصص من خرم باب غرفـة حسن عليها! ماذا يريد؟ أن يغويها؟ لا يجوز شرعا أن يكون في بيت واحد شاب وشابة غرباء.. يكونان كالنار والبارود لا يلبث أن ينفجر..
حنيفة: خذ فاطمة وأعدها الى أهلها.. أنا ربيت أولادي جمـيعهم دون مساعدة أحد..
الأسير: فاطمة ليس لها من أحد تلجأ اليه.. سألت عن أهلها.. والدها توفي وأمها وأخواها الصغيران يعيشون عالة على خالها المعيل.. لهذا سأسأله ان كانت له رغبة في الزواج من فاطمة، فان رفض كان لـي شأن آخر معه..
حنيفة: بماذا تهدد يا أبو محمود؟
الأسير: لن يكون له سكن في هذا البيت.. سأصطحبه الـى بيـروت للسكنى معي هناك.. وسأتزوج أنا فاطمة وأبقيها هنا! فاختاري أحـد الحلين..(حنيفة تتنهد)
حنيفة: تخيرني خيارا صعبا يا أبو محمود، وتجعلني هزؤة بين أهلي في صيدا، وأنا لا أنفك أمدح خصالك وعفتك وتقواك!
الأسير: هذا قراري يا حنيفة.. قولي له أن الرجل بأفعاله يشرف نسبه ونسب من يتزوج.. صحيح أن الرسول قال "اختاروا لنطفكم!" ولكـن الإختيار لايكون حسب الوضع الإجتماعي للإنسان.. فالغني بـصفاته يبقى غنيا أربعين عاما ولو جارعليه الزمن، والفقير في صفاته يبقـى فقيرا بعد أربعين عاما من غناه (طرق خفيف على الباب.. فاطمة من وراء الباب تنادي حنيفة بأن الفطور جاهز)
حنيفة: أنا قادمة!
الأسير: أنا لن أفطر حتى تأتيني بجواب محمود.. لا أريد أن أنفعـل وأفقد سيطرتي على نفسي وأقطع حبل الود بيني وبينه الى الأبد، فان كان جوابه قبولا يكون فيه الخير للجميع، وتعيش فاطمة بيننا عزيـزة

مكرمة وليست كخادمة، أما اذا كان رفضا فليجمع حوائجه وليـذهب معي الى بيروت، فليست بنات الناس لعبة بين يديه!

(2) (بيروت.. منزل يوسف الأسير.. محمود نـائم فـي سـرير والده.. الشيخ مستلق على الديوان قبالته بكامل ثيابه.. يستيقظ محمود)

الأسير: أنا ذاهب الى مقري في صحيفة لسان الحال.. سـأترك لـك مبلغا من المال تشتري لنفسك طقما على النسق الأوروبي وطربوشـا تركيا وكل ما تحتاجه من قمصان وألبسة داخلية ومنامـات.. سـتبدأ عهدا جديدا هنا.. غدا نذهب معا الى منزل المرحوم علي باشا.. فابنته تريد أن تستعين بك لملاحقة معاملات إرث أبيها في لبنان.. وتريد بيع بيتها لتلتحق بأبنائها الثلاثة في استنبول.. طلبت مني ذلك ولكن وقتي لا يسعفني، فاقترحت عليها أن توكلك أنت في هـذه الأمـور.. فـي المطبخ كل ما تحتاجه للفطور، والحمام أوقدته لك، وغذاؤنا يكون في بيت مصطفى، فهو يدعوني في كل يوم سبت.. كـن جـاهزا حتـى نفاجئه بقدومك في الثانية والنصف..

(3) (بيروت.. قصر علي باشا.. الأسير ومحمـود فـي غرفـة الإستقبال.. تطل شهربان من الباب بقامتها الفارعة.. يرتعش قلب محمود ويؤخذ بجمالها.. لم يسبق له أن شاهد مثيلا لهذا الجمال.. أميرة بملامح تركية يونانية ترتـدي اليـشمق وقـد زادها لباس الأسود المزين الصدر والكمين بخيـوط الـذهب جمالا، وأبرز فتنة بشرتها البيضاء النقية الملـساء وشـفتيها الممتلئتين القرمزيتين وعينيها السوداوين الكحيلتـين.. تـدخل وراءها جارية تحمل صندوقا تضعه على طاولة وتخرج)

شهربان: كيف حالك يا أستاذ محمود؟ حمدا لله على عودتك سـالما.. أخبرني والدك أنك بحاجة الى نقاهة بضعة أسابيع، وأنا لـست فـي عجلة من أمري.. فراق هذه البلاد المعتدلة الجو يحـز فـي نفـسي، خصوصا وقد تركت فيها أعز انسان لي.. والدي الذي كان صـديقي ومرشدي، وأحببته حب ابنة وحيدة لوالدها الشغوف.. ان قبره أصبح حجي..

الأسير: هل انتهى بناء القبر؟

شهربان: نعم، كنت أتمنى لو أتيح لي دفنه فـي اسـتنبول، ولكـن الظروف لم تكن ملائمة.. القصر في هيجان للهزيمة، وقد يخلع مراد

الخامس عن عرشه في أية لحظة.. (تذكر زوجها الأمير مراد وتشعر بالحرج أن يلاحظ أحد دمعها الذي كاد يطفر من عينيها فتخرج)
الأسير: (لمحمود) ما بالك جلست كالمأخوذ، تحملق فيها كالأبله، ولا تفوه بكلمة!
محمود: كنت أردد شعر ابن هاني:
يزيدك وجهه حسنا أذا ما زدته نظـ ـرا
(تعود شهربان بصينية فيها شراب التـوت وتقـوم بنفـسها بواجـب الضيافة)
شهربان: (ترشف قليلا من الشراب المثلج وتقـول لأبـي محمـود) سأبعث اليك بعربة والدي وسائقها لتكون تحت تصرفك ريثما يتعافى محمود، فهو يكون بحاجة اليها في نزهاته وزياراته..
الأسير: لا حاجة بمحمود الى عربة.. المشي أفضل لصحته..
شهربان: (بهدوء) أنا لا يلزمني أن تكون مركبتان في قـصري.. ولا أريد بيعها وأنا مقبلة على سفر.. وأنت كنت أفضل صديق لوالـدي، وأريد أن أهديك اياها ذكرى من والدي، فأشعر بالراحة أن هناك فـي لبنان من يزوره في الأعياد ويترحم عليه ويضع فوق قبره الآس..
الأسير: ماذا أفعل بالسائق؟

شهربان: أسرته تسكن في القصر، وراتبه علي.. وحين أسافر يكـون محمود مسؤولا عنه.. انه رجل وفي وزوجته كـذلك، انهـا طباخـة ماهرة تحسن طبخ الأطعمة اللبنانية التي أصبحنا نستسيغها منذ حللنـا لبنان.. وبما أن اليوم أحد ولا تدريس عندك في الجامعة الأمريكية ولا في ثانوية الثلاثة أقمار فانكما ستكونان ضيفي على الغذاء.. (صـوت طفل يبكي) أنا ذاهبة لإرضاع علي، وحين أعود أرافقكمـا لمـشاهدة القصر والحديقة حتى يحين موعد الغذاء (الى محمود) سـأترك لـك صندوق الأوراق الرسمية والثبوتية التي في حوزتي تضطلع عليها.. (تناوله الصندوق وتخرج)

الأسير: (محذرا) لا تعلق قلبك بالمستحيل يا محمود.. تظنها قريبـة منك، ولكن بحورا تفصل ما بينك وبينها.. انها راهبة نذرت شـبابها وحياتها لتربية أبنائها الأربعة.. وهي أرملة قتل زوجها الأمير مـراد وكانت تحمل له حنان الحب ودفء الود، فجعها موته.. جاءت لبنـان مع والدها مؤقتا حتى تنتهي الحرب وكي تنسى مصيبتها، فكان أمـر

الله أن تفجع بوالدها، وهي تريد العودة الى أبنائها الثلاثة الذين تركتهم في بيت جدهم من أجل دراستهم.. انها لا ترغب بالزواج حتى لوكان من يطلبها أميرا، حتى لا تفقد الحق في حضانتهم..

محمود: أبي انها شابة وقد وقعت من نفسها كما وقعت من نفـسي.. لقد شدت على يدي حين صافحتني!

الأسير: انها كانت تفعل ذلك مع من أعرفهم.. مع فـارس الـشدياق وغيره ممن لا تعرفهم.. فقط أنا من كانت تنحني لي برشاقة لآننـي شافعي لا أمد يدي للسلام على أنثى..

محمود: كان على وجهها بسمة المحب!

الأسير: (غاضبا) حذار أن توغل بك الظنون يـا محمـود!.. اننـي أعرفها منذ كانت في السابعة عشر من عمرها.. فارسة متحررة، أمها أخت السلطان عبد المجيد، تقابل في منزل والدها قناصل الدول، تبسم في وجوههم، وتشد على أيديهم حين تصافحهم.. تـصور أن والـدها أدخلها الكلية العسكرية لتدرس ما يدرسه الرجال من علـوم التـاريخ واللغات والجغرافيا والإسعافات الأولية، ولكن شيخ الإسلام لم يتركها تكمل دراستها حتى الشوط الأخير.. حرض عليها الـسلطان فـأراد والدها إرسالها الى مدرسة داخلية في ألمانيا تدرس فيها الطب، ولكن أمها وهي وحيدتها أبت عليها ذلك.. حضرت لها حفلة سباق الخيـل آخر العام فكانت الفائزة الأولى في السباق، وكان الثاني الأمير مـراد الذي أصبح زوجها فيما بعد..

محمود: ماذا أفادها ركوب الخيل بعد الزواج حين أرادتها الحيـاة أن تتزوج وتنجب الأبناء؟

الأسير: أريد أن أخبرك بأنها التقت بالرجل الذي كان يناسبها.. كـان في صف التخرج من المدرسة العسكرية وأرسله والدها للتخـصص بالمدفعية في ألمانيا فانتظرته حتى عاد.. وكان الحب قد نما بينهما منذ حفلة السباق وتعاهدا على الزواج، وبقي حيا طوال حياتها الزوجيـة وأنجبت منه أولادا مميزين، فهل تهجرهم اليوم من أجل شخص ليس من قومها ولا هومن طبقتها الإجتماعية؟

محمود: ليس للحب حدود يقف عندها ان نما في قلب انـسان.. ولا يعيش الإنسان سعيدا في ذكريات الماضي الذي كان ولـن يكـون.. والأولاد يعيشون وينمون ويدرسون بدونها، ثم ينطلقون الى حيـاتهم الخاصة.. ولن يكون لها في مستقبلها الاّ قلبا يخفق بحبها.. أنا لـست دونها في نسبي وثقافتي فأنا ابن الأسير المنسوب الى الحسين ابن بنت الرسول.. وأحسن ثلاث لغات: الإنجليزية، والتركيـة، الـى جانـب العربية وأضيف لدراسة اللغات الطب والحقوق!

الأسير: لا تكن طموحا يا ولدي فتخسر عملك الذي أرسله الله لـك.. فلو تماديت ولو بالكلام وأظهرت عواطفك نحوها، فانها تتخلى عـن توكيلك في شؤونها، وتجد شخصا آخر يخدمها، دون أن يقحم نفـسه في حياتها..

(4) (صيدا.. منزل الأسير.. حنيفة تستقبله بلهفة وقد ارتدت أجمل ثيابها، وتكحلت وتعطرت مستعدة لهذا اليوم العـصيب الـذي يقرر فيه الشيخ مصيرها.. لعله يتراجع عن قراره.. فاطمـة في المطبخ تهيئ الفطور.. يخلع عمامته وتساعده حنيفة فـي خلع سترته)

حنيفة: كيف حال محمود، طمني عن صحته!

الأسير: شد حيله وانتصبت قامته، وارتدى ثيـاب المحـامين الكبـار وصارت له عربة، وبلغ به الغرور أن يعشق شهربان..

حنيفة: انه محمود لن يتغير، من بنت الجيران الى شـهربان! اخلـع ثيابك واغتسل من وعثاء السفر، فالحمام ساخن..

الأسير: هو كذلك، وأريد أن أصلي ركعتين..

حنيفة: ثيابك جاهزة في الحمام (تذهب الى المطبخ من بابه الداخلي.. الى فاطمة) أتركي الشاي فلا تلقميه حتى ينتهي الشيخ من صـلاته.. (تتأمل ساهمة المائدة وعليها المفرش الأبيض، وكل أنواع حواضـر البيت.. تهب واقفة وهي تفكر) أعرفه يصلي حين يبرق الفجر!

الأسير: (على سجادة الصلاة) اللهم اني أستخيرك بعلمك، وأسـتقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فأنت تقدر ولا أقـدر وتعلـم ولا

أعلم.. وأنت علام الغيوب.. رب ألهمني الصواب لأفعله.. اللهـم لا سهل الاّ ما جعلته سهلا، ولا صعب الاّ ما جعلته صعبا.. رب جنبني المزالق، فلا أظلم أحدا.. اللهم ان وجدت فيما أضمر خيرا أعني عليه ولا تعجزني عنه.. عدل في قضاؤك وماض في حكمك.. نور صدري واشرح صدري لما فيه خيري، ولا تكلني الى نفـسي طرفـة عـين وأصلح لي شأني.. لا اله الاّ أنت، لا اله الاّ أنت!

حنيفة: أطلت صلاتك يا أبو مجمود، وما هي أوانها!

الشيخ: انها صلاة استخارة يا حنيفة، ولقد أذن لـي ربـي وألهمنـي الصواب فيما أفعله (ينهض.. تسرع حنيفة لـتلقم الـشاي.. يتبعهـا الشيخ.. فاطمة تحاول الخروج من الباب المؤدي للحديقة.. يـستوقفها الشيخ) ابق يا فاطمة وافطري معنا!

فاطمة: معاذ الله يا شيخ أن أرفع نفسي الى مقامك!

الأسير: قلت لك اجلسي يا فاطمة وافطري معنا.. بـسم الله، اللهـم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه! (حنيفة تحضر لفاطمة كوبا وصحنا، فتجلس منكمشة على نفسها.. تقوم حنيفة بـسكب الـشاي وتحليتـه.. الجميع يتناولون الفطور متوتري الأعصاب ولا يأكلون الاّ القليل)

الشيخ: (لفاطمة) أنا سألت عن أهلك في اللاذقية، وعلمت أن والـدك قد توفي منذ بضعة أشهر، أما والدتك فانها انتقلت للسكن فـي بيـت خالك مع أخويك.. فهل تحبين أن أوصلك أنا وأم محمود الى اللاذقية حيث تنضمين الى أمك في بيت خالك؟

فاطمة: (باكية) لا بالله، انه معيل وسيكون لضائقته أقسى علي مـن والدي، ولن يغفر لي أنني طلقت زوجي، وربما أعادني اليه!

الأسير: ألك أقارب في اللاذقية غير خالك؟

فاطمة: لي عم تاجر يقاطعنا منذ زمن ولا يعترف بنا، وكان يخجـل من أبي لأنه فقير..

الأسير: أنت في حمايتي الآن، ولكنني لا أستطيع أن أستبقيك طويلا في بيتي.. فماذا ستفعلين؟

فاطمة: يكفيني أنك خلصتني من الضيم الذي كنت فيه.. انني أخدمك وأخدم خالتي أم محمود بعيوني، جزاء ما أحسنتم به الي..

الأسير: نحن لا نستخدم أحدا في بيتنا، لقد ربت أم محمـود خمـسة أولاد دون أن تستعين بأحد: أربعة أبناء وبنتا فارقتنا وهي فـي مثـل سنك منذ عشرة أعوام.. (فاطمة صـامتة ودموعهـا تنهمـر علـى وجنتيها) يعلم الله أنني أحببتك كما كنت أحب ابنتي فريدة التي فقدتها وكانت أثيرة لدي.. انك تشبهينها الى حد كبير.. تمنيت لو تـصبحين فردا في عائلتنا فأستأنس بك، وعرضت الأمر على ابنـي العـازب محمود ولكن كان له رأي آخر.. يريد أن يحقق طموحه ويبني نفـسه ولا يفكر بالزواج (فاطمة تشهق بالبكاء)

فاطمة: لاأريد أن أخرج من هذا البيت الاّ الى القبر..

الأسير: أصبح همي الشاغل أن أراك قريرة العين، لا خوف يضنيك، ولا أحد يتجنى عليك، ولكن كيف أفعل هذا ولست ابنتي؟ ولست مـن ذوي رحمي.. هل أخلص من كلام الناس، ومن الشبهة فـي نوايـاي وأنا أحيطك برعاية الإبن لابنته؟ لا يا فاطمـة لا يجـوز شـرعا أن أتبناك.. ولا أستطيع أن أتجنب ألسنة السوء بنواياي وأنا مفتي البلـد وقاضيها.. استخرت في أمرك ربي.. فهداني الى ما شرح لي صدري (يلقي نظرة خاطفة الى حنيفة فيرى وجهها شاحبا كالليمونة) أعقـد عليك دون أن أقربك.. ان فارق العمر مـا بينـي وبينـك لا يـسمح لضميري أن أظلمك.. أما ان شاء الله غير ذلك، فيكون الأمر بيـدك ولا سلطان لي عليك، فأزرع في رحمك الولد، ولعل الله يكرمني في شيخوختي فأنجب منك بنتا تشبهك وتشبه ابنتي فريدة التـي لا يـزال جرح فقدها طريا في قلبي!

* * *